

المحاضرة التاسعة: النقد الأيديولوجي

تمهيد:

لاحظنا سابقا أن النقد كان في البداية عبارة عن تأويلات غير قائمة على مناهج محددة ولا قوانين واضحة تتحكم في أصوله، ولكن تطور الحياة في العصر الحديث وتعقدها ومع قيام الثورة الفكرية الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر راحت المذاهب الأدبية تقترب أكثر وأكثر من المجتمع ومن الموضوعية بعيدا عن التأثرية في ادراك حقيقة العمل الأدبي، وهذا يعني أن فلسفات جديدة سيطرت على مفهوم الأدب ووظيفته في المجتمع والحياة، وأهم هذه الفلسفات {الفلسفة الاشتراكية والفلسفة الوجودية اللتان نتج عنهما منهج نقدي جديد نستطيع أن نسميه بالمنهج الأيديولوجي، وهو منهج يختلف عما كان يسمى في أواخر القرن الماضي بالمنهج الاعتقادي، فهو لا يري أن يؤخذ الأدباء والفنانين على أساس من معتقدات خاصة يتعصب لها الناقد}¹،

الحديث عن النقد الأيديولوجي، يفترض منا الحديث عن الأيديولوجيا، وهنا يؤكد عبد الله ابراهيم أن ما نعرفه أن الأيديولوجيا {من طبيعة معرفية ولكنها ليست المعرفة ذاتها، وما نعرفه كذلك أن الإيديولوجيا من طبيعة فكرية، ولكنها ليست الفكر نفسه؛... فالإيديولوجيا في نظرة هي الخيار المعرفي الأصلي الحاضر في المعرفة العلمية الحديثة والدعوة اليه والاعلان عنه، وكشفه ومواجهة الخيارات المعرفية الأصلية الأخرى به}²،

إن المنهج الأيديولوجي يرى أن {الأدب والفن لم يعودا مجرد تسلية أو هروب من الحياة ومشاكلها وقضاياها ومعاركها وأن الأديب أو الفنان يجب ألا يعيش في المجتمع ككائن طفيلي أو شاذ أو جبان

¹ - محمد مندور، النقد والنقاد المعاصرون، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، مصر، 1997، ص187

² - عبد الله ابراهيم، ما هي الأيديولوجيا، علم الأفكار أم الافكار بدون وعي، ط1، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2017، ص13، ص24.

هارب أو سلمي باك أو مهرج ممسوخ ، وهو عندما يعرض للمصادر التي يستقي منها الأديب موضوعاته قد يفضل التجربة الحية المعاشة على التجربة التاريخية البالية... وهو لا يكتفي بالنظر في الموضوع بل يتجاوزه إلى المضمون³

إن ما يؤمن به النقد الأيديولوجي هو أن قضية الفن للفن والجماليات التي ينبغي أن تتوافر في الأدب لم تعد تتماشى مع الفترة الحالية بسبب الصراعات المختلفة التي يخوض فيها الإنسان المعاصر، فيجب أن يخصص الكاتب والمبدع فنه وإبداعه لخدمة أغراض وتوجهات تفيد الحياة ويعمل على تطوير ما أمكنه بدل السقوط في فخ المتعة الزائلة والمتعة، فالنقد ليس {صدى للحياة بل يجب أن يصبح قارئين لها فقد انقضى الزمن الذي كان ينظر فيه إلى الأدباء والفنانين على أنهم طائفة من الفرديين الأبقين الشذاذ أو المنطوين على أنفسهم أو المجترين لأحلامهم وآمالهم الخاص أو الباكين لضباعهم وخيبة آمالهم في الحياة وحان الحين لكي يلتزم الأدباء والفنانون بمعارك شعوبهم وقضايا عصرهم ومصير الإنسانية كلها⁴

يبدو واضحاً أن النقد الأيديولوجي ينتصر لقضية أن النقد في حد ذاته لا يجب أن ينشغل بالشكليات ولا بالجماليات الفنية ولا أن يقف عند حدود تأويل النصوص وتفسيرها أو نفض الغبار عنها بإعادتها إلى الساحة والتعريف بها، إن النقد الأيديولوجي يؤمن بفكرة التغيير والالتزام بقضايا أدبية وفنية ودور الأدب في الحياة، وهو لا يدعو إلى المحاكاة الحرفية وإنما الاقتراب من هموم المجتمع وأن يحارب فكرة الشر، وأن يستجيب لدعاوي العصر، وقيمه بطريقة طبيعية دون أن يفقد مهمته وطبيعته الفعالة والإيجابية التي تنتصر للمتعة على حساب الفائدة،

1-رواد النقد الأيديولوجي في الغرب:

³ - محمد مندور، لنقد والنقاد المعاصرون، ص 187

⁴ - أنظر المرجع نفسه، ، ص 188، ص 189

بدأ تيري أنجلتون كتابه النقد والأيدولوجية بمقولة يقول فيها: {من الصعب أن نرى في النقد شيئا أكثر من كونه فرعاً بريئاً من فروع الدراسة، إن مصادره تبدو عفوية ووجوده يبدو طبيعياً، هناك أدب ولذا ولأننا نرغب في فهمه وتذوقه فإن هناك نقد أيضاً، إن النقد كتابع للأدب وشريك طيفي له... لكن إذا كانت مهمة النقد هي أن يمهد الطريق الصعب بين النص والقارئ أن يدرس النص ويوسع من مجاله لكي يصبح أسهل استهلاكاً فكيف يمكن تجنب تعرض كتلته الغليظة بين النتاج والمستهلك وهو يقوم بحجب نيته في الفعل المتمثل المذعن لكونه ظللاً للأدب} ⁵ ، فالباحث هنا يشير إلى فكرة كون النقد طفيلي لا يمكن أن يكون مجرد قراءة شفافية للنصوص،

فالنقد لم يكن بريئاً حسب تيري أنجلتون ولا يمكن أن يوجد من فراغ، لذا نادى بضرورة أن يتضمن النقد فرع النقد الماركسي كون النقد تاريخ أكثر من مجرد وصف اعتباطي، فالنقد له {حياته الخاصة المستقلة نسبياً قوانينه وبنياته الخاصة، إنه يشكل نظاماً معقداً داخلياً يتم فصل مع النظام الأدبي أكثر من كونه يعكس هذا النظام، إنه يظهر إلى الوجود ثم يختفي بناءً على شروط خاصة محددة بل قد يكون من الضروري أن نعتذر للشعر في بنائها لتاريخ النقد لا نعمل على تتبع علمية تجدد الجدل المنتظمة} ⁶ ،

والأمر لا يتعلق بالنقد فقد بل إن أنجلتون يرى أن الأدب هو وسيلة أيديولوجية أيضاً تعمل على غرس الفضائل ويتولى مهمة الدفاع عن القيم الأيدولوجية الصريحة للطبقة المهيمنة فهو في الأخير ناطق باسمها، فيغدو حينها حقلاً يشهد داخله مختلف الصراعات الطبقيّة مما يجعله متنسباً للجماليات الأيدولوجية أن تاريخ النقد هو {مظهر من مظاهر تاريخ طقم من التشكيلات الأيدولوجية المحددة كل منها متفصل داخلياً لكي يمنح امتيازاً لممارسات نقدية بعينها بوصفها لحظة متعينة خاصة من

⁵ - تيري أنجلتون، النقد والأيدولوجية، ترجمة فخري صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1992، ص 22

⁶ - المرجع نفسه، ص 29

مستويات اخرى ان علم تاريخ النقد هو علم المحددات التاريخية لهذا التعين الشديد للجماليات الأدبية⁷،

وتطور الأمر مع التوجه الماركسي الذي بدأ ينمو في الغرب منذ 1968 والذي كان من مهامه أن يميز المحددات التاريخية الكامنة وراء انبعائه، وخاصة مع الفيلسوف الألماني كارل ماركس الذي ربط بين الأدب والبنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع، باعتبار {أن الايديولوجيا وعي جماعي بمصلحة ونظام فكري لتبرير تلك المصلحة، أي شرعيتها وتوسيع الدفاع عنها، وهي تضيق وتتسع تبعاً لضيق واتساع المصلحة التي ترتبط بها ونطاق القاعدة الاجتماعية الملتحمة أو المتضامنة بها}⁸، ورأى أن الأفكار والثقافة انعكاس للواقع المادي. كما أسهم المفكر فريدريك انجل في تطوير هذه الرؤية من خلال تحليله للعلاقة بين الأدب والواقع الاجتماعي.

وقد اهتم جرامشي ببيان العلاقة بين الأدب وايديولوجيات الثقافة، مركزاً على مفهوم الهيمنة الذي وأصر ليو ألتوسير على قدرة الأيديولوجيا على التأثير في المجتمع والسيطرة عليهم، مؤكداً أن الوظيفة الأساسية للأيدولوجية هي إعادة انتاج علاقات الانتاج الحالية للمجتمع⁹، لقد تآثر التوسير بكتابات ماركس وبعدها بغرامشي في مراجعة افكاره حول الماركسية ودور العوامل الأيدولوجية التي اضحت لها دور وظيفي امام العوامل الاقتصادية،

ويمكن أن نذكر الجهود الذي قام بها مجلة *Scrutiny* التاريخية في إنجلترا، والتي أسسها كل من الناقد الإنجليزي *F. R. Leavis* و *Denys Thompson* سنة 1932. وساهمت في ترسيخ فكرة أن الأدب مرتبط بالبنية الثقافية للمجتمع وأن دراسته يجب أن تتجاوز حدود التحليل الشكلي لتصل إلى تحليل

⁷ - تيري انجلتون، النقد والأيديولوجية، ص32

⁸ - عبد الاله بلقيز، الثقافة : المعرفة والأيديولوجيا، دار الساقى، ط1، لبنان، 2024، دص44/43

⁹ - أنظر دوبلاس كيلير وميشيل رايبان وآخرون. مدخل الى النقد الثقافي والدراسات الثقافية، ترجمة معتز سلامة، ط1، دار المحرر لنشر والتوزيع، مصر، 2023، ص42/41

القيم والأفكار التي يعبر عنها . لقد اهتمت هذه المجلة بدراسة الأدب دراسة نقدية دقيقة، وسعت إلى الارتقاء بالذوق الأدبي والدفاع عن الأدب الجاد في مواجهة الثقافة الجماهيرية السائدة، إن المجلة في أطروحاتها كانت تعلم على إعادة تشكيل جذرية الأشكال والقيم وتوحيدها داخل الحقل الجمالي الخاص بالأيديولوجية التي ستعقب في مرحلة من مراحل الأزمة التاريخية الخطيرة دورها في احياء الأيديولوجية السائدة وإعادة انتاجها. وبذلك يمكن القول إن مجلة *Scrutiny* لم تكن مجلة للنقد الأيديولوجي بشكل مباشر، لكنها أسهمت في تمهيد الطريق لهذا النوع من النقد من خلال اهتمامها بالعلاقة بين الأدب والمجتمع والقيم الثقافية، وهو ما جعلها محطة مهمة في تطور النقد الأدبي الحديث.

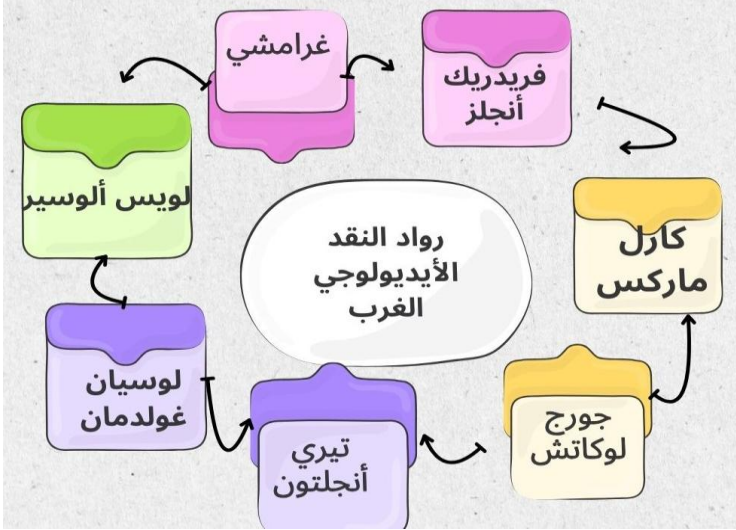
الأدبي لا يمكن

فهمه فهماً كاملاً إلا إذا دُرس في سياقه الثقافي والاجتماعي. لذلك اهتم نقادها بتحليل القيم والأفكار التي يحملها النص الأدبي، والكشف عن أثر التحولات الاجتماعية والحضارية في الإنتاج الأدبي. ومن هذا المنطلق اقتربت توجهاتها من مبادئ النقد الأيديولوجي الذي يهتم بدراسة الأنساق الفكرية والقيم التي تعكسها النصوص الأدبية.

ولقد كان الأمر يتجاوز حقا مجرد إعادة صياغة الحقل الجمالي للأيديولوجية كما يتعلق بصورة فعالة بإحلال عناصر أخرى محل العناصر الموجودة، فقد أعادت {تقييم التقاليد الأدبية ولكناه فعلت ذلك لأنها رأت في تلك التقاليد مستودعا ممتازا للقيم الانسانية التي داست عليها بوحشية عملية التطور الرأسمالي المعاصرة وبذلك مثلت المجلة الوعي المثالي العقيم للرأسمالية بقيامها بإعلاء الوجه الانساني الليبرالي لهذه الرأسمالية}¹⁰، إن هذه مجلة كانت لفترة تمثل أوجه الصراع مع المؤسسة الأكاديمية وخلق نوعا من الصراع مع قوى اجتماعية،

¹⁰ - تيري انجلتون، النقد والأيديولوجية، ص25

وفي القرن العشرين ظهر عدد من النقاد الذين طوّروا هذا الاتجاه، من بينهم الفيلسوف المجري جورج لوكاتش الذي ركّز على العلاقة بين الأدب والطبقات الاجتماعية، واعتبر الرواية شكلاً فنياً يعكس



التغيرات التاريخية في المجتمع. كما اهتم المفكر الفرنسي لوسيان غولدمان بدراسة البنية الفكرية للنصوص الأدبية وربطها بالوعي الجماعي للطبقات الاجتماعية.

ومن النقاد الذين أسهموا أيضاً في هذا المجال الفيلسوف الفرنسي لويس الستير

الذي قدّم تصوراً جديداً للأيدولوجيا باعتبارها منظومة من الأفكار التي تؤثر في وعي الأفراد داخل المجتمع، وقد أثرت أفكاره في الدراسات الأدبية والنقدية. وهكذا يتضح أن النقد الأيديولوجي في الغرب ارتبط أساساً بالفكر الماركسي وتطور على يد عدد من المفكرين الذين سعوا إلى فهم الأدب بوصفه تعبيراً عن البنية الاجتماعية والفكرية للمجتمع.

يبدو واضحاً أن وظيفة النقد الأيديولوجي تقترب من كونها اظهار القيم والمواقف الأيدولوجية الكامنة في النصوص الأدبية أو الخطابات الثقافية، وبيان علاقتها بالبنية الاجتماعية والتاريخية التي أنتجتها. فهو يسعى إلى تحليل النص الأدبي لا بوصفه عملاً جمالياً فقط، بل بوصفه حاملاً لأفكار ومواقف سياسية أو اجتماعية أو ثقافية قد تكون ظاهرة أو مضمرة. وبهذا يتم ربط النص بسياقه الاجتماعي والتاريخي، لأن النص لا يولد في فراغ، بل يتأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي يعيشها الكاتب والمجتمع.

2- رواد النقد الأيديولوجي في الساحة العربية:

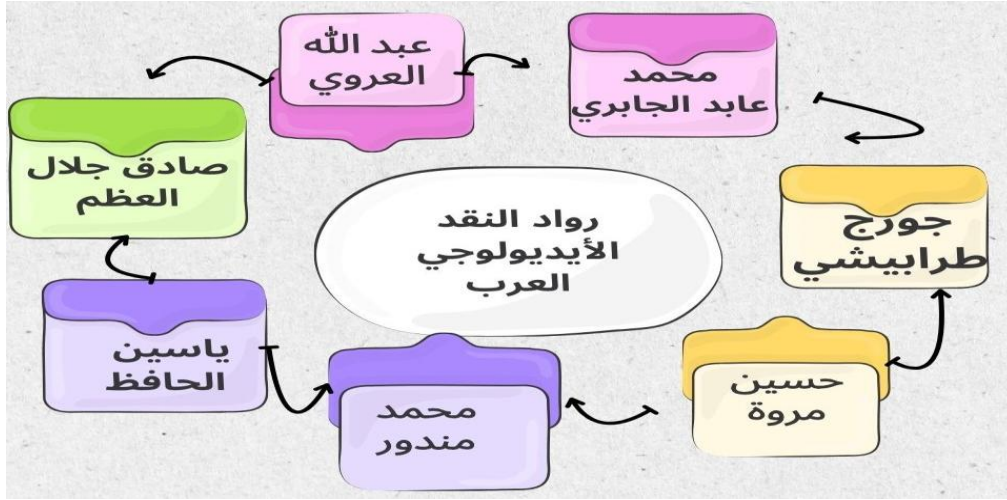
يمكن {لأي قارئ في الانتاج الفكري العربي منذ بدايات لقرن العشرين حتى اليوم وفي مجالاته كافة أن يلحظ ظاهرة الحضور المتضخم للأيديولوجيا فيه، بما هي رؤية إلى العالم والأشياء والظواهر}¹¹ ، وقد اتجهت المقالات التي حامت حول الايديولوجيا الى تناول قضايا مختلفة تتصل بالحدثة والمعاصرة والتراث والهوية، واختلف النقاد والمفكرين في نوعية الانحيازات التي قدموها، اهتم عدد من النقاد بدراسة النقد الأيديولوجي، حيث سعوا إلى تحليل النصوص الأدبية في ضوء القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية التي يعيشتها المجتمع العربي.

ومن أبرز هؤلاء النقاد المفكر المغربي محمد عابد الجابري الذي أسهم في تحليل البنية الفكرية والثقافية في العالم العربي، وقد انعكست أفكاره في الدراسات النقدية التي تهتم بالكشف عن الأنساق الفكرية والأيديولوجية داخل النصوص. في أعماله مثل "نقد العقل العربي ومدخل إلى العقل العربي"، ركز على دراسة البنية الفكرية للثقافة العربية، موضحاً كيف تتداخل الإيديولوجيات مع التراث والفكر السياسي والاجتماعي. ويؤكد الجابري أن النقد الأيديولوجي ضرورة لفهم العقلية المهيمنة وتمييز الإبداع المستقل عن التكرار التقليدي للأفكار، مع التركيز على تطوير العقل العربي نحو التجديد والتحرر الفكري.

ويعد سعيد علوش من أبرز المفكرين في النقد العربي المعاصر، حيث ركّز على دراسة الإيديولوجيات وأثرها على النصوص الثقافية والسياسية. يرى أن النقد الإيديولوجي يجب أن يكشف السلطات الفكرية والقيم المهيمنة التي تتسلل إلى الأدب والفكر العربي، ويتيح للباحث والقارئ تمييز التجديد الحقيقي عن الإقحام الأيديولوجي، ومن أهم أعماله التي تناول فيها هذه الأفكار: "النقد العربي بين

¹¹ - عبد الاله بلقيز، الثقافة : المعرفة والإيديولوجيا، ص56

الحدثة والتقليد "و**الفكر العربي بين الأيديولوجيا والتاريخ**"، حيث يحلل العلاقة بين الثقافة والفكر والسياسة في المجتمع العربي ويبرز أهمية الوعي النقدي المستنير.



ومن النقاد الذين اهتموا أيضاً بهذا الاتجاه الناقد المغربي عبد الله العروى الذي ركّز على العلاقة بين الأدب

والفكر والتاريخ، ودرس تأثير الأيديولوجيا في الثقافة العربية. يرى عبد الله العروى أن الفكر العربي لا يمكن فصله عن إطاره التاريخي والاجتماعي والسياسي، وأن النصوص الأدبية والثقافية تحمل دوماً إيديولوجيات خفية تعكس مصالح القوى السائدة والقيم المجتمعية. كما ان الأيديولوجية تتوسع لتستخدم في مجالات معرفية وسياسية واجتماعية تاريخية، ولكل منها مجال اشتغالها ونظامها، ولا يختلف عن ماركس ولا نيتشه ولا فرويد في نظرتة للايولوديا على انها وعي زائف غير مطابق للواقع¹² في أعماله، مثل "الأيديولوجيا العربية المعاصرة"، وتاريخ الفكر السياسي العربي، يحلل العروى كيف تشكّل هذه الأيديولوجيات وعي الفرد والمجتمع، ويؤكد على أهمية الفهم النقدي الموضوعي للتمييز بين الأفكار السائدة والتجديد الفكري الحقيقي. لقد صرح أن { التفكير في الأيديولوجيا لا يستقيم الا من طريق ربطها بالمجتمع والتاريخ ووضعها في نطاق علاقتهما: أي من طريق مباحرة المنطق والحق والانصراف الى

الواقع¹³

¹² - عبد الاله بلقيز، الثقافة: المعرفة والإيديولوجيا، ص 85

¹³ - عبد الاله بلقيز، الثقافة: المعرفة والإيديولوجيا، ص 83

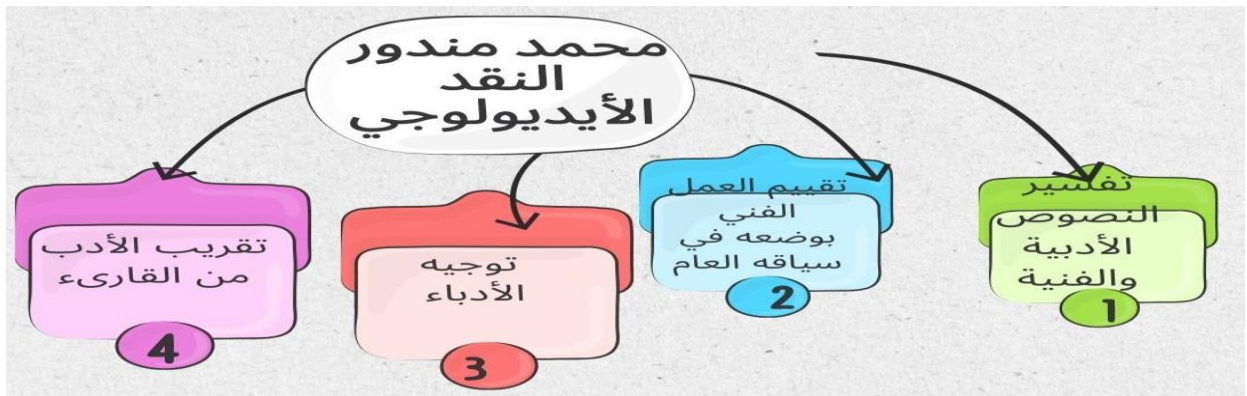
نضيف الناقد المصري محمود أمين العالم الذي مثل النقد ذي التوجه الأيديولوجي، متأثراً بالفكر الماركسي الذي ينظر إلى الأدب في ضوء الصراع الاجتماعي والفكري داخل المجتمع. فكتابه المهم "الإيديولوجيا في الأدب العربي"، يعد مرجعاً أساسياً لفهم النقد الإيديولوجي في الفكر العربي الحديث. وهو يستكشف العلاقة بين الأدب والفكر الإيديولوجي وكيف تعكس النصوص الثقافة والمجتمع. تناول محمود أمين العالم فيه كيف تحمل النصوص الأدبية رسائل ومعتقدات ثقافية وسياسية تؤثر في وعي القارئ والمجتمع. موضحاً كيف يمكن للنقد أن يميز بين النصوص التي تعكس إيديولوجيات مهيمنة وتلك التي تسعى إلى التجديد والتحرر الفكري، وهكذا يتضح أن النقد الأيديولوجي في الساحة العربية ارتبط بمحاولة فهم الأدب في علاقته بالواقع الاجتماعي والفكري، والكشف عن القيم والأفكار التي تحملها النصوص الأدبية.

يُعد محمد مندور من أوائل النقاد العرب الذين اهتموا بالنقد الأيديولوجي، إذ ربط الأدب بالواقع الاجتماعي والفكري، ورأى أن العمل الأدبي يجب أن يُفهم في سياقه التاريخي والثقافي، كما أكد على دور النقد في توجيه الأدباء دون فرض قيود عليهم. يرى أن النقد لا يقتصر على تحليل النصوص شكلياً، بل يجب أن يكشف الرسائل والمعتقدات والخلفيات الإيديولوجية التي تحملها، ويبين تأثيرها على وعي القارئ والمجتمع. بالنسبة له، فهم هذه الأيديولوجيات يساعد على تمييز بين التجديد الحقيقي والإقحام الأيديولوجي في الأدب، ويجعل النقد أكثر عمقاً وموضوعية. ويرى محمد مندور أن فاعليته تكمن في:

➤ تفسير النصوص و الأدبية والفنية لتقريبها من العامة ومن القراء كما يرى مندور، لذا فالنقد لا يقف

عند تلقي النص بل يسهم في عملية خلقه من جديد مما يضيف له قيماً جديدة

- تقييم العمل الفني بوضعه في سياقه العام ومستوياته المتعددة، ومعالجته شكلا ومضمونا وهذا يعني تقريبه من اصوله وجنسه الأدبي والتنوعي ومراعاة وسائل المقاربة المختلفة
- التدخل في توجيه الأدباء والفنانين من غير الزامهم بأي شيء لذا، فالنقد الأيديولوجي يوجه الأفكار والمعارف دون تقييد لها، يظهر ما ينبغي على الكاتب أو الفنان القيام به، بغير تعسف¹⁴
- تقريب الأدب من القارئ باطلاعه على فنياته وطبيعة اهتماماته التي تشمل كل انشغالات الانسان.



¹⁴ - أنظر محمد مندور، لنقد والنقاد المعاصرون، ص 190 ص 191